السيرة - هدي النبي صلى الله عليه وسلم - الدرس (٢٥ - ٤٨) : هديه في العمل الدؤوب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي- تاريخ١٧-٠٥-١٩٩٨

{ بسم الله الرحمن الرحيم }

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، و الصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العمل :

خطر في بالي هذا المثل تمهيداً لهذه الأحاديث؛ ماكينة خياطة قديمة، الخيط الذي يمشي في مكان معين، على معدن من أقسى المعادن، استطاع خلال ثلاثين عاماً أن يحفر مجرى له، استطاع أن يحفر هذا الخيط خلال ثلاثين عاماً من هذا المعدن القاسي ما يزيد عن واحد مليمتر نحو الأسفل.

في بعض الدوائر الحكومية- النفوس قديماً- المنزل في المرجة، تجد الرخام ممسوح أكثر من أربعة إلى خمسة سنتمترات؛ صار الدرج واضحاً جداً، وهناك أمثلة كثيرة أن العمل الدؤوب يؤثر في الأحجار، شيء خفيف، أحياناً نقطة ماء مستمرة تثقب صخراً.

هناك مجموعة أحاديث تبين هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العمل، فعن عائشة رضي الله عنها قالت:

((كان للنبي صلى الله عليه وسلم حصير، وكان يحجره بالليل؛ فيصلي عليه ....))

[النسائي عن عائشة]

أي يتخذه حجرة؛ الإنسان عندما يصلي على مصلى حصر نفسه - قضية نفسية - في هذا المصلى إذا وضع أمامه سترة- علامة أمامه- حصر نفسه في هذه العلامة - وهذا من السنة، الإنسان أحياناً يصلي وراء عضاضة؛ فيرتاح، لو صلى بمنتصف المسجد؛ قضية مفتوحة؛ فالإنسان حينما يحصر نفسه في مكان؛ هذا المكان يعينه على أن يجمع قلبه على الله عز وجل – فكان عليه الصلاة والسلام له حصير فكان يحجره بالليل -يجعله كالحجرة- فيصلي عليه:

((...ويبسطه في النهار، فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبـي صـلى الله عليه وسلم، فيصلون بصلاته، حتى كثُروا، فأقبلَ عليهم وقال: يا أيها الناس، خُذُوا مـن الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تَملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله؛ أدومها وإن قل))

[النسائي عن عائشة]

منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج متوازن لا ينتج عنه أخطار :

أحب الأعمال إلى الله - أي ركعتان كل يوم ضحى أحسن من مئة ركعة بالـسنة مرة - أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، إنسان لزم هذا الدرس يثبت عليه، لـزم صـلاة الفجر في المسجد فليثبت عليها، لزم أن يصلي قيام الليل ركعتين يثبت عليهمـا، أمـا عمليـة الطفرة والفورة ثم الهمود؛ فهذه عملية محبطة؛ يهمك الأثر النفسي؛ العمل الدؤوب يعمل ثقـة بالنفس، يعمل تراكماً، يعمل ثقة وتراكماً، أما العمل غير الدؤوب فيعمل إحباطاً، يضعف أثره، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام هذا توجيهه في مجموعة أحاديث؛ أي بساعة تألق دفع ألـف ليرة صدقة، فيما بعد لم يكرر ذلك، صار معه إحباط، صار عند الله بخيلاً، عمل ونـدم؛ أمـا خمسون ليرة كل أسبوع؛ صدقة دائمة؛ فتعمل أثراً متنامياً في نفسه، تعمل له ثقة بـالنفس، و تعمل له قوة تأثير، الثبات نبات، كل شيء مع الاستمرار له أثر، من دون استمرار يعمل ردة فعل معاكسة في النفس، يعمل إحباطاً، فإذا تمكن الإنـسان - بعباداتـه، بإنفاقـه، بـصلواته، بصيامه، حتى في كل علاقاته - أن يثبت على شيء فهذا الشيء ينمو شيئاً فشيئاً، وهذا الشيء يعطيه ثقة بالنفس، وهذا الشيء يعطي تأثيراً.

لا أذكر أين ذهبت إلى مكان وجدت أثر شيء ضعيف، صارخ، لكن هذا الشيء الضعيف بشكل مستمر، أنا ذكرت الآن: خيط بالماكينة؛ كيف أنه قد حفر خمـسة مليمتـرات، بأقسى أنواع المعادن، خيط بسيط لكنه يمشي في مكان مستمر، تذكرت وقع الأقدام على درج رخام، من أقسى أنواع الرخام؛ خلال أربعين عاماً، أخذ من الرخام مسافات كبيرة جداً؛ صار الدرج ممسوحاً، وهناك أمثلة كثيرة على هذا، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

وإن أحب الأعمال إلى الله؛ أدومها وإن قل))

[النسائي عن عائشة]

كثيراً ما يمر على المساجد شباب؛ يفور فور كبيرة؛ من قيام الليل لإنفـاق إلـى صدقة إلى.... وفيما بعد فجأة يتلاشى هذا الحال، ويعود إلى ما كان عليه- يـسمونها نكـسة، يسمونها إحباطاً - تضعف ثقته بنفسه، يظن نفسه منافقاً؛ لأنه لم يمشِ باعتدال، البارحة التقيت

مع شخص، قال لي: أنا ما لزمت مسجداً، وما تعلمت على يد رجل، إلا أن بعض الكتب - بدأ يقرأها وحده، وكتب ممنوع قراءتها- فيها شطحات كبيرة جداً، فيها ألغام، قرأها وحده وصار معه فورة غير متوازنة؛ هذه الفورة أدت به إلى مرض نفسي، هذا المرض كان له آثار كبيرة جداً، فأنا قلت له: لو طبقت منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منهج متوازن لا يمكـن أن ينتج عنه أخطار، الله عز وجل قال:

يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وكُونُوا مع الصادقين

[سورة التوبة:١١٩]

وقال:

واصبِر نَفْسك مع الذين يدعون ربهم بِالْغَداة والْعشي يريدون وجهه ولا تَعد عينَاك عـنْهم تُريد زينَةَ الْحياة الدنْيا ولا تُطع من أَغْفَلْنَا قلْبه عن ذكْرنَا واتبع هواه وكَان أَمره فُرطاً

[سورة الكهف: ٢٨]

من منهج النبي أن تلزم الجماعة و يكون لك مرجع ديني :

من منهج النبي أن تلزم الجماعة؛ من منهج النبي ان يكون لك مرجع ديني، لـك ثقة به؛ أنت ابحث عن إنسان تثق به، واجعله مرجعاً لك في الدين، من مـنهج النبـي عليـه الصلاة والسلام الاستشارة و الاستخارة، فإذا لم يعبأ الإنسان لا بمنهج ولا بمرجـع، وتحـرك حركة وحده من دون توجيه؛ قد يصاب بمضاعفات خطيرة جداً، كان في غنى عنها؛ فلـذلك أيها الأخوة، من منهج النبي عليه الصلاة والسلام أن نلزم الجماعة بـشكل متـوازن، أحيانـاً الإنسان يندفع فيهمل دراسته، ثم تذهب هذه الفورة؛ يرى كل أصدقائه تفوقوا ، معهم شـهادات عليا وهو في أسفل السلم، فينقم على الدين - أنت لم تكن متوازناً- أحياناً يهمل عمله؛ فجـأة يفاجأ؛ صار فقيراً، أهمل عمله؛ اختل توازنه، أهمل دراسته؛ اختل توازنه، ما خطط للـزواج إطلاقاً؛ كان في فورة، هذه الشهوة خامدة، فلما ذهبت هذه الفورة سيطرت هذه الشهوة؛ لـيس معه مال، لا يوجد عنده إمكانية، هذا الذي يمشي بشكل غير متـوازن، لا يخطـط تخطيطـاً سليماً، أو إذا دعا الإنسان إلى الله، و لم يبن أخوانه بناء صحيح، بناء متوازن، بناء يجمع بين الحاجة والقيمة، بين الدنيا وبين الآخرة، فهو إنسان لا خير فيه، أي أعظم ما في الإسلام أنـه منهج متوازن؛ اعترف بنوازعك الأرضية؛ قال لك: تزوج واعمل واكسب المال، فأحياناً تنشأ فورة انفعالية عاطفية عند بعض الشباب؛ تجده يهمل دراسته، يهمل عمله، يهمل كـل شـيء، هذه الفورة عندما تنتهي يجد نفسه تخلف.

التوازن يقضي أن يفعل الإنسان عملاً مستمراً :

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام ما قبل أن يأخذ من سيدنا عمر كل ماله، أخـذ نصف ماله للدعوة، أي عليه واجبات، هناك إنسان مستثنى فقط؛ هو سيدنا الصديق، الذي عنده إيمان لو وزع على لأهل بلد لكفاهم، إنسان فقط بتاريخ المسلمين، أما الباقي فهنـاك تـوازن، التوازن يقضي أن تفعل عملاً مستمراً:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))

حتى بالعبادة، إذا الإنسان فار فورة ثم همد؛ فهذه فيها نكسة، افعل ما تطيـق، لا تكلف نفسك ما لا تطيق، فالإنسان إذا حمل نفسه فوق ما يطيق ثم تراجع؛ تضعـضعت ثقتـه بنفسه، وشعر حاله منافقاً، وشعر حاله كاذباً، أما إذا عمل عملاً مـستمراً؛ فالعمـل يتنـامى، والثبات نبات، قال:

((خُذُوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تَملوا، وإن أحب الأعمـال إلى الله ما دام وإن قل))

وأنا بحياتي أشخاص كثيرون سلكوا طريق الفورة والتألق السريع ثـم اختفـوا، وانتكسوا ويا ليتهم لم يتألقوا هذا التألق، ولم ينتكسوا هذا التنكس.

أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل :

وفي رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل:

((أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال: أدومه وإن قَل))

[رواه أبو داود عن عائشة]

وفي رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخلَ أحدكُم عملُه الجنةَ، وأن أحب الأعمـال إلى الله أدومها وإن قل))

[رواه البخاري ومسلم عن عائشة]

وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

أحياناً الإنسان يلزم الدرس؛ الدرس منهج متكامل؛ كتاب معين، فـإذا لـزم هـذا الدرس حقق علماً متكاملاً، هناك شخص يأتي الدروس كلها وفيما بعد يغيب نهائياً، فأنت الزم

درساً أو درسين، اثبت واصعد درجة درجة، حتى في التجارة، حتى في الأعمال؛ الطفـرات المفاجئة هذه تعقبها نكسات خطيرة، عود نفسك على الثبات، أي خطوة خطوة، ضـع قـدمك على صخر ولا تنزع قدمك إلا إلى صخر، تعش سالماً وآمناً.

وفي رواية للبخاري:

((كان أحب الأعمال إلى الله الذي يدوم عليه صاحبه))

[البخاري عن عائشة]

وفي رواية لمسلم :

((كان أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. وكانت عائـشة إذا عملـت العمـل لزمتْه))

[مسلم عن عائشة]

إذا لزم الإنسان أن يقرأ في اليوم جزأين! أقرأ خمس صفحات في اليوم؛ أي أنـا أقول لك الحد الأدنى؛ خمس صفحات؛ يحتاجون لعشر دقائق، عشر دقائق لا يغيرون منهجك، أما هذه الصفحات الخمس اليومية، قراءة متأنية مع تدبر، فجد نفسك خلال فترة معينة ختمـت ختمة، أما إما أن نقرأ جزأين في اليوم، أو تدع القراءة كلياً؛ كلا؛ خطأ، أنـت اقـرأ، وضـع لنفسك خمس صفحات، وعندما تكون نشيطاً، ومعك وقت، ومرتاح ومـسرور؛ اقـرأ عـشر صفحات، اقرأ خمس عشرة صفحة، اعمل حداً أدنى لا ينخفض واعمل حداً أقـصى، فاعمـل خمس كحد أدنى، اعمل ورداً بسيطاً، هناك أوراد لطيفة؛ مئة مرة أستغفر الله، مئة مرة لاإلـه إلا الله، مئة مرة اللهم صل على سيدنا محمد، إذاً استغفرت، ووحدت، وصليت علـى النبـي، هذه كلها وارد فيها أحاديث صحيحة، وجدت نفسك نشيطاً قل: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم؛ نشيطاً أكثر؛ لا حول لا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، سبحان الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

حدثني أخ - والآن والله متألق تألقاً كبيراً- قال لي: أنا ألزمت نفسي أن أقرأ "يس" كل يوم، طوال حياتي، فكأن هذه السورة تعطيني زخماً روحياً، فكلما قرأتها شعرت نفسي أني قدمت شيئاً، الزم أن تقرأ سورة معينة أو خمس صفحات من القـرآن، أو أن تـذكر الله عـز وجل، صل ركعتي ضحى، وليس ثمان، ابدأ باثنتين، اركع ركعتي قيام الليل، فقط ركعتين قبل الفجر؛ أنت صليت قيام الليل، فقط داوم عليها، يقوم ليلة ثماني ركعات، اثنتي عشرة ركعـة، عشرين ركعة، و لا يعيدها بعد ذلك فأنت ابدأ بعبادة معتدلة، عبادة ثابتة.

درء المفاسد مقدم على جلب المنافع :

بالمناسبة أخطر شيء بالدين ترك الفرائض، هذه مقدمة على كل النوافل، فإن الله لا يقبل نافلة ما لم تؤد الفريضة.

فبالدين هناك شيء خطير جداً؛ ان تدع المحرمات كلها، والمخالفات كلها؛ مادمت قد تركت المخالفات والمعاصي والمحرمات فالطريق سالك إلى الله، أحد الـشيوخ لـه كلمـة لطيفة، كان له مريد يأتي إلى الجامع فيقول له: - كان لهذا الشيخ كاز قديم- مثل الكاز الـذي مستودعه ملآن، والفتيلة مقصوصة، والجرس مجلس، والبلورة ممسوحة؛ يحتاج فقط إلى عود ثقاب؛ يتألق مادام مستقيماً؛ فالتألق سهل جداً، أما إذا إنسان له مخالفات، وجاء إلى المـسجد؛ فبينما يعبئ المستودع، ويقص الفتيلة المحروقة، ويجلس الجرس، ويمـسح البلـورة؛ انتهـى الدرس، لأن هذه المخالفات تعمل راناً على القلب:

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ

[سورة المطففين :١٤]

بالمناسبة درء المفاسد مقدم على جلب المنافع؛ الإنسان عندما يصلي قيام الليـل، وله جلسة مختلطة مع النساء اللواتي لا يحللن له؛ لم يعد يقوم لقيام الليل لأنه ارتكب معصية، المعصية حجبته عن الله عز وجل؛ هذه نوافل العبادات لم يعد لها طعم، فالإنسان قبل أن يبـدأ بالنوافل يجب أن يؤدي الفرائض، قبل أن يبدأ بالنوافل يجب أن يدع المحرمات كلياً؛ إذا ترك المحرمات صار الطريق سالكاً إلى الله؛ أية حركة، أي ركعتين، أي غض بـصر، أي تـلاوة قرآن، يصل إلى الله، وصل لأن الطريق سالك، وممهد، الطريق يمهد بالاسـتقامة، بالنوافـل تمشي على هذا الطريق، أما إذا كان الطريق مسدوداً بالمخالفات فالنوافل لم يعد لها معنى.

كلنا عند الله واحد و لا يرفعنا إلا طاعتنا له :

هناك أشياء بالإسلام خطيرة جداً؛ فالإنسان عندما يستقيم صار هناك خط سـاخن بينه وبين الله، قال لي إنسان بالهاتف - من ألمانيا -: أنا من خمس **و** ثلاثين سنة لا أصلّي، و لا أصوم ، ولا أقوم بأي عمل؛ وعندما استقمت استقامة تامة فتح خط بيني وبين الله - أحببت عبارته - صار أكثر شيء أتمناه أن أدخل للبيت لأصلي، عندما استقام صارت الصلاة محببة له جداً، فالإنسان حكيم نفسه، يجب أن تعرف لماذا أنت غير قادر أن تصلي؟ لماذا إن وقفـت بين يدي الله لا يوجد اتصال بالله؟ لماذا إذا قرأت قرآناً تتضايق؟ معنى ذلك أنـك محجـوب، محجوب بالمخالفات، لا تغلب نفسك، أزل المخالفات أولاً، فتجد أن الطريق صار سـالكاً، الله

لنا كلنا، لا تصدق أن الله لجهة دون جهة، لواحد دون واحد، الذي أعطى أخاك يعطيك، والذي أعطى الصحابة يعطيكم؛ الله موجود، وقوانينه ثابتة، وطرق التعامل معـه واضـحة، وكلنـا عباده، ولا أحد أحسن من أحد.

مرة التقيت مع رجل عالم قال لي كلمة - كان عمري خمـسة عـشر عامـاً -: اصدق أكثر مني تسبقني، هذه الكلمة طيرت لي عقلي، ما هذه الموضوعية؟ لا يوجد كهنوت؛ قال لي: اصدق أكثر تسبق؛ كلنا عند الله واحد:

ولو تَقَوّلَ علينَا بعض الأَقَاوِيل*لأَخَذْنَا منْه بِالْيمين*ثُم لَقَطَعنَا منْه الْوتين*فَما منْكُم من أَحد عنْه حاجِزِين

[سورة الحاقة:٤٤-٤٧]

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً))

تشعر نفسك أنه ليس لك أية ميزة إلا الطاعة فتتألق، ولا شيء يرفـع المـسلم إلا طاعته لله، عندما تؤمن لا شيء يرفعك عند الله؛ لا نسبك، ولا مكانتك، ولا ذكاؤك، ولا باعك الطويل إلا طاعتك له؛ هذه وحدها ترفعك، تعامل معه بالطاعة، واعرج في مدارج الكمال.

والحمد لله رب العالمين